رؤية الماغوط حول الموت وانعدام الذات

الباحثة ناديا ثقيل پور
طالبة دكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها
الأستاذ المساعد الدكتور
صادق ابراهيمي كاوري
Ebrahimi.kavari2006@gmail.com
جمهورية إيران الإسلامية
جامعة آزاد الإسلامية آبادان ـ كلية العلوم الإنسانية ـ قسم اللغة العربية وآدابها

The perspective of Al-Maght of the concept of death and self dis affirmation

Researcher
Nadia Thakeel Bur
Ph.D. Candidate in Arabic
Assist Prof. Dr.
Sadiq Ibraheemi Kawri
University of Azad

الملخص:

الموت هذه الظاهرة المؤلمة والقاضية على حياة الفرد وهادمة اللذات، قد عُولجت من قبل الشعراء المعاصرين الذين يعانون من نكد الحياة وجشوبة العيش ومرارة الأزمات، فانعكس ذلك جليا في أشعارهم وأخذ حيزاً واسعاً من قصائدهم. من أولئك الشعراء في هذا المضمار هو الشاعر المعاصر السوري محمد الماغوط الذي طالما يذكر الموت و الفناء للفرد والمجتمع في عبارات متعددة و مضامين شتى؛ لأنه كان يعاني من مضض الحياة وتدهور الأمور على الصعيد الفردي والاجتماعي؛ لأن المجتمع الذي يعيش فيه أصبح ميتاً فاقد الحركة والنشاط والمقاومة. جاءت هذا المقالة لتبين مدى رؤية الشاعر حول ظاهرة الموت، منها الموت الصريح المتمثل في القتل وهدم الذات والتشريد والدمار والموت الضمني، المتمثل في فقدان الحركة والحيوية في المجتمع اللذين من خلال هذه الرؤية حاول الشاعر بث أفكاره في هذا المجال وهي رموز ساغها الشاعر بنزعية رمزية قائمة على أسس منطقية.

الكلمات الدليلة: الرؤيا، الموت، الماغوط، الذات، العدمية.

Abstract:-

Death This painful and harsh phenomenon on the life of the individual and the satisfaction of pleasure has been dealt with by contemporary poets who suffer from the uncertainty of life and the vitality of life and the bitterness of crises, This is reflected in their poetry and a wide range of their poems. One of the most prominent poets in this field is the contemporary Syrian poet Mohammed Al-Maghout, who always mentions death and annihilation of the individual and the community in many different terms and contexts; Because he suffered from life's reluctance and the deterioration of things on the individual and social levels, because the society in which he lived became a dead movement, activity and resistance. This article presents the poet's vision of the phenomenon of death, including the clear death of murder, self-destruction, homelessness, destruction, and implicit death, namely the loss of movement and vitality in society. Through this vision, the poet tried to broadcast his ideas in this field, which are symbols of the poet's poetical demeanor based on logic.

Key words: vision, death, Mohammed Almagout, self, nihilism.

المقدمة:

الماغوط شاعر وأديب سوري ، ولد في سلمية بمحافظة حماة عام ١٩٣٤. تلقى تعليمه في سلمية ودمشق و كان فقره سبباً في تركه المدرسة في سن مبكرة، كانت سلمية ودمشق وبيروت المحطات الأساسية في حياة الماغوط وإبداعه، وعمل في الصحافة حيث كان من المؤسسين لجريدة تشرين كما عمل الماغوط رئيساً لتحرير مجلة الشرطة، احترف الفن السياسي و ألف العديد من المسرحيات الناقدة التي لعبت دوراً كبيراً في تطوير المسرح السياسي في الوطن العربي، كما كتب الرواية والشعر وامتاز في القصيدة النثرية وله دواوين عديدة. توفي في دمشق في ٣ أبريل ٢٠٠٦. (اليسوعي، ١٩٩٦،ص ١١٥٩).

كانت حياة الماغوط قاسية، مغلقة بالفقر و الشتات و الحزن، ثم ان تجربة السجن قبل بلوغه العشرين غيرته بشكل جلي من مجرد فلاح بسيط إلى كائن آخر يسكنه الرعب وتتقاذفه الكوابيس السجن والسوط كانا معلمي الاول، و جامعة العذاب الابدية التي تخرجت منها، انسانا معذبا.

خلفية البحث:

حول الماغوط واتجهاته الفكرية والشعرية كتب العديد من المقالات من مثل فاعلية القبول و قصد القراءة لنصوص شعر محمد الماغوظ للدكتورة نعيمة سعدية ولغة الماغوط الشعرية للدكتور على گنجيان خنارى وخديجة براتي كاشاني ومحمد الماغوط واحمد شاملو في جدلية العاطفة والفكرة للدكتور مهدي خرمي ومهدي نودهي. وحول ظاهرة الموت وانعكاساتها في الشعر من مثل الحياة والموت في الشعر الجاهلي، د. عبد اللطيف جياووك، و"الحياة والموت في شعر الشابي دراسة في الثنائيات" لـ محمد لطيف حسين، و"الحياة والموت في الشعر العراقي المعاصر- مرحلة الرواد - دراسة فنية " لـ سعيد عبد الرضا خميس و لكن حول رؤية الماغوط للموت لم تكتب مقالة حتى الآن.

عرض الموضوع:

لا شك أن الموت ظاهرة طبيعية إنسانية وجدت مع الحياة نفسها وهي خاتمة للحياة، وقد يتخذ الشاعر الذكي من هذه الظاهرة تعبيراً متضمناً دلالات رمزية لفدان الحيوية في المجتمع

وفقدان الحرية للأفراد والتسليم أما التحديات؛ ولكن هذا التعبير و الموقف يتخذ أشكالاً شتى تبعاً لعوامل عديدة: بيئية ونفسية ولعل استئثار الشاعر لوصف هذه الظاهرة إنما كان يتضمن إدراكاً باطناً لهذه الخاتمة التي تلاحقه فراح يعرض لها في إبداعاته كغيره من أصحاب الفنون، واصبح التفكر بالموت سمة من سمات الرومانسية التي اهتمت عند ظهورها بالنزعة الذاتية الحزينة فاستمر هذا الاتجاه قوياً متدفقاً.

وعندما نتمعن الشعر العربي يكاد لا يخلو نص شعري حديث من حضور للموت بشكل أو باخر وقد يكون مردُّ ذلك إلى تفشّي مظاهر الغياب بصورة مسيطرة على الأنا الكلية والواجدان الجمعي. فتبدأ رؤيا الموت باليأس على المستوي الفردي ثم تتطور متجهةً نحو العدمية التي لازمت الحداثه)). فأصبحت العدمية أحد المستويات الحضورية للموت (مقدسي، ٢٠٠٥م، ص١٧).

وعلى المستوى العربي، بالاضافة إلى الحالة الكونية التي انبثقت عنها مظاهر شعرية معينة، ترجح الخيبة التي مُنيت بها الذات العربية بعد تحرر بلدانها من الاستعمار، فقد استشعرت اليأس من محيطها لتجد نفسها في درجه الصفر. ولا قابلية للقفز فوق هذه الدرجة، إذ لا معطيات تؤسس لهذا القفز وإن العالم الأرضي الذي يعيشيه الشاعر مليء بصور الموت والتوتر والضياع والأسئلة المعلّقة في معلاق الانتظار المجهول (مختار، ملاس، ٢٠٠٢،ص ١٣١). فقد سقط هذا العالم في بؤرة مغلقة تتفتت داخلها كل الأحلام النورانية، وبالكاد ينكشف فيها صوت المستقبل ليبقي الانهيار هو الحديث الغالب عليها. (المرجع السابق، ص ١٣١).

ولما وصل الواقع إلى هذه الحال، غدا تطلّع الشعراء إلى الموت حركة لإنهاء هذه الحال المأزومة، ولفتح السبيل أمام البدائل المنقذة. ليكون الموت بذلك هو الحياة الأفضل، أو هو التوق إليها فكل شيء يحمل نقضيه في ذاته، فالحياة في الموت، والموت في الحياة (الموسى، ٢٠٠٠م، ص٣٠).

الموت الصريح عند الماغوط:

كان طلب الموت عند الماغوط دلالة نفسية عميقة على الظمأ الطاغي لحياة بديلة أغني وأخصب (خنسة، ١٩٨٢،ص ٧٤) فالموت بهذا الشكل لا يقدم بالضرورة صورة سلبية، وإنما يرتكز على بؤرة سلبية ذات إشعاعات إيجابية، حيث الشعر يتجاوز النمط الواحد

والصبغة الثابتة. وهذا ما أحسب أن ((جون كيتس)) الشاعر الإنكليزي كان يقصده بقوله:

((الان يبدو لي أكثر من أي وقت آخر أن من الخصوبة أن أموت)) (الملائكة، ١٩٦٧، ص٢٧٢).

يقول الماغوط في قصيدة ((جناح الكآبة)) معبراً عن التخاذل والتنافر والفرقة وتبديل القيم و عدم التحمس في المجتمع:

((مخذول أنا لا أهل ولا حبيبة

أتسكع كالضباب المتلاشي

كمدينة تحترق في الليل

والحنين يلسع منكبي الهزيلين

كالرياح الجملية، والغبار الأعمي

فالطريق طويلة

والغابة تبتعد كالرمح

مدّي ذراعيك يا أمْ

أيتها العجوز البعيده ذات القميص الرمادي

دعيني ألمس حزامك المصدّف

وأنشج بين الثديين العجوزين

لألمس طفولتي وكآبتي

المع يتساقط

وفؤادي يختنق كأجراس من الدم

فالطفولة تتبعني كالشبح

كاساقطة المحلولة الغدائر))

(الماغوط، ٢٠٠٦،ص ٤٢)

وعنوان ((جناح الكآبة))، عنوان ثري ذو انزياح كبير عن المألوف، فالكآبة قفزت إلى حقل دلالي جديد، إنها الطائر الذي يحوم فوق الرؤوس ويظلها، أوهي كالسحابة، يطول فيها كل ما هو تحتها، وكلمة ((جناح)) جاءت معززة للمعني فقط، لتأكيد دلالة شيوع الكآبة واتساع بقعتها، واستحالة الخلاص منها.

إن واقع الذات في هذه القصيدة انحدر حتى أدني مستوي، معلناً الحضور الحضيضي الذي تمقته الذات، وجلّ أمينتها لو تتخلص منه.

قد بني المشهد على بني تركيبية، وصور أرست الحال المتدنية التي وصلت إليها الذات. وهذه البني هي: (مخذول أنا، أتسكع، الضباب المتلاشي، مدينه تحترق، يلسع، الهزيلين، الغبار الأعمى، البغابة الرمح، كآبتي، الدمع، يختنق، أجراس من الدم، الشبح، الساقطة).

لا نجد في المشهد السابق أي دلاله إيجابية، إنها حالة البوار العام، ففيها اليتم، والتشرد والطرد، واللا انتماء، والفقر، وانعدام الرؤية المستقبلية، والاختناق، والقتل، والرذيلة. هذه هي عناصر الواقع، لا تبديل لها، لذا بدأت الذات ((الفردية والجمعية)) تتحسس بذور الموت، بسيطرة الكآبة عليها لبئس المآل. فيتحيث عن المجتمع الذي أصبح كل شيء فيه فاقد الحركة والحيوية وهم أشبه بالموتى تنتابه الكآبة والحزن والجثث والخرائب والدمار:

((مِن بينَ جذور القمح وأظافر الموتى

أخاطبك أيها القاتل

بين أسناني خمس سفن من الدموع

وغزال يتأبط صحراء كالتلميذ

عبر الأصبع والأصبع

آلاف الجثث والخرائب))

(الماغوط، ٢٠٠٦،ص ١٠٦)

وكذلك هذا المشهد، تأكيد لقتامة الواقع لكنه تعزيز لحالة القتل. إن الماغوط هذا ينظر إلى الموت من الزاوية الماشرة، فيبدو الجسد في الصورة كأنه ممدد تحت الأرض ليشرح ما

يتشابك من أمور تسهم في قتامة المشهد وتعزيز الموت والدمار وفقد أصبح في لحظة لا فعل مستسلما لهبوطه إلى الحضيض.

والأزمات المحيطة على بلاده التي جعلت كل شيء في ذبول بعد أن كانت فيه الحيوية والفاعلية وأغلب تلك الحالات كانت في الماضي والآن لم تكن توجد أمام ناظريه يقول:

((تلك الغيوم كانت في بلادي

وتلك الطيور في سماني

وذلك الضباب في قريتي

وذلك الياسمين على شرفتي

وذلك الهديل على نوافذي

وذلك الحنين في ضلوعي

وكل ذلك التصميم في ملامحي

وكل ذلك الغبار ورائي

وكل ذلك الآفاق أمامي

وكل تلك البطولات في ذاكراتي

وكل ذلك الدخان في مضاربي

وكل تلك المهابة في مجلسي

وكل ذلك الحداء في حنجرتي

وكل تلك الملاحم في دفاتري))

(الماغوط، ٢٠٠٧م،ص ٢٣-٢٤)

هنا يبرز مشهد جديد من مشاهد الحالة الحضيضية، أنه مشهد الفقد ،لقد فقدت الأشياء ميزاتها، وفقد المشهد حيوية، وزالت عن الحياة صورتها المشرقة. لقد حضر الرحيل السلبي، رحلت ((الغيوم والطيور والياسمين والهديل والحنين...)). رحل كل ما هو

مشرق، لا وجود لشيء يدعو إلى البقاء. فهنا تكريس للحالة السيئة التي وصل إليها الواقع، حالة الحضيض التي هي الموت في أدنى مستوى له.

ويتطور انعكاس الواقع السلبي الذي بلغ الحضيض في النفس ليصل إلى درجة تختنق فيها الذات، ويمتزج معه الشعور بالاغتراب. إن لحظه الاختناق هي درجة في سلّم ارتقاء الموت. فالماغوط نظر إلى الأناء من زاوية هزيمتها (القيم، ٢٠٠٦م،ص٨١) قد بدأت ملاح انتصار الموت بالظهور، فأعراضه الأولي مالكة للذات. ويقول:

((من التاسعة حتى العاشرة

حيث أمعاء الساعات تبرز كالمعاصم

اضطجعت وحيدا على الصخور

ذهبت إلى دورة المياه

شادا ربطة عنقي إلى أسفل

تاركا إياها

تتأرجح كيد ميتة على صدري

وتخيلّت آلاف الأشجار المحترقة

تهوي عليد الأرض

الآف الجنازير والأفواه والسلاسل

تطوق غرفتي كالضماد))

(الماغوط، ٢٠٠٦،ص ١١٠،١١١)

وسنستعرض قاموس البني الدالة في هذا المقطع((أضطجعت وحيدا، ربطة عنقي، يد ميتة، الأشجار المحترقة، تهوي، آلاف الجنازير والأفواه والسلاسل، تطوق، الضماد)).

إن هذه البني محيلة إلى حصار وقيد متمكن بالغ الذروة. وبالتالي إلى الاختناق من هذه القيود التي لا انتهاء لها كما يبدو. وهذا الاختناق في وجهة الآخر، مرتبط بعالم المدينة الذي

ينقده الماغوط في شعره كثيرا، فالواحدة أحد المظاهر الاجتماعية العامة للمدينة.

فالناس لا تربطها في المدينة علاقات في أبسط مستوياتها فبداء الاختناق من الشعور بالوحدة، التي تجعل الإنسان يصل في وساوسه أماكن عجيبة، ما يحمله على ردود أفعال لا ضابط لها ولا قانون ينبئنا بها.

فالمشهد بدأ بربطة تطوق العنق وهي متدلية كاليد الميتة المتخشبة، ثم الأشجار الهاوية المحترقة، وهي رمز احتراق الخصب وانتهائه، ليحل الهشيم والجدب. ثم القيد المباشر والمحيل إلى الاختناق عبر بنية السطحية الأولية ((الجنازير والسلاسل)). فيقول حول الأساة المحيطة به فيود أن ينادي بأعلا صوته مُعلاناً عن تلك المعاناة متمنياً الموت و الرحيل:

((سمعت موسيقا حزينة

وهززت رأسي كالجواد

واشتهيت أن أصهل صهيلا طويلا يمزق عنقي

أن يكون عنقي من البلور الصافي

لأري أنهار الشوق والجوع والذكريات

كيف تجري

أن أخلع نواجزي

وأضعها على طاولتي كالقفاز

وأنام حتى ينتهي العالم))

(الماغوط، ٢٠٠٦،ص١١٠،١٠٩)

فيتنمى أن يري والده حتى يري ما حل بهم:

((اشتهيت أن يدخل أبي

من ذلك الباب المذهب

وعقال يتأرج على ظهره كحبال المسارح

ومخاط بقرته الحبيبة

يسيل هنا وهناك

كما يسيل الدم من شقوق المقابر))

(الماغوط، ٢٠٠٦،ص١١٠،١٠٩)

فالشاعر عند استذكاره للماضي يتمني انشقاق القبور و مشاهدة دم القتلى:

((اشتهيت الدم من شقوق المقابر

اشتهيت أن أري قرنيها اللامعين

يثقبان الضجر والحرية

الريح والمطر والهتافات

وتلك الأشداء المفلطحة كأزرار المعاطف))

(الماغوط، ٢٠٠٦، ص١١٠،١٠٩)

في هذا المقطع ننتقل لنري يد الموت تغادر الذات لتطول المحيط فكيف ستتعامل الذات مع هذا الموت المحيط بها؟.

إنها ستختار الهروب، لكن كيف ستهرب؟

قد سمع الشاعر الموسيقا الحزينة التي هزته واستثارت كوامن نفسه المشبهة لهذه الموسيقا، ففيها الشوق والجوع والذكريات إنّ الشوق والجوع هما الجمال والقبح، أما الذكريات، فهي الحاضن للاثنين معا. فثمة ذكريات قاسية، وأخري جميلة. لكن الذكريات، أي نوع منها هي ذكريات حزينة، فلا المفرح عائد، ولا الأسي القديم قابلة آثاره للمحو. فاختارت هذه الذات الهروب، وكان هروبها بنومها عن هكذا حياة، ئ الخروج من تفاصيلها وكأنها لا تعني الذات حتى النهاية. ثم يستدعي الشاعر ((الريف)) الذي رمز إلى الحياة في الماضي، في مواجهة الفناء في الحاضر. لتصبح المدينة رمز الموت، والريف رمز الحياة.

وتدلُّ الأفعال على الحياة المتجددة، إذ استخدمها في حالة المضارع، لتدلَّ على حيوية وتجدد الحدث، (فالاسمية تدل على حقيقة دون زمان، أما الفعل متغير متجدد (مطلوب،

أحمد، ص١٩٩٦، ٦٥٨).

والصورة التي استدعاها الشاعر هي صورة الأب الفلاح بلباسه القروي البسيط، ومخاط البقرة وهي حبيبة لأنَّ الريفي شديد التعلق بالأرض ومتعلّقاتها يسيل في كل مكان، هذه البساطة هي التي شكلت الأرومة النابضة بالحياة في الماضي، إنها أسُّ الحياة، وهي ما أرادته الذات أن تحتاج الواقع الآني المليء بالضجر والحرية والشعارات والجنس. فحياة المدينة مرهقة للذات، وكلّما حاولت الذات الهروب من امتلائها تتبعها. فيقول في ذم تلك الظواهر المميتة للحرية:

((سأقذف هذا القلم إلى الريح

سأدفنه كالطائر

بين الثلوج البيضاء

وأمضي على فرس من الحبر

ولن أعود))

(الماغوط، ٢٠٠٦،ص ١٥٠)

في هذا المقطع نوعٌ آخر من الهروب، هو ((توقف الفاعلية)) فالذات ستستقيل من الفعل، وخاصة الفكري منه ((الكتابة)) فالكلمات تولد ميتة لا نفع فيها في محيط ميت لا سبيل إلى إحيائه. لذا آيست الذات وفضّلت الهروب عن فكر المحيط الميت وعدم الانتماء إلى منظومتة التي تدير تفكيره. قد ينطفيء الحلم و تفقد الحرية أو تسلب و يظهر الإنسان ضحكة كاذبة أمام الواقع فيقول:

((انطفأ الحلم، والصقر مطارد في غابته

لا شيء يذكر

إننا نبتسم وأهدابنا قائمة كالفحم

هجعت أبكي أتوسل للأرض الميتة بخشوع

أواه لم زرتني يا ليلي؟

وانت أشد فتنة من نجمة الشمال

وأحلي رواء من عناقيد العسل لا تكتبي شيئا سأموت بعد أيام

القلب يخفق كالمحرمة ولا تزال الشمس تشرق، هكذا نتخيل

إننا لا نراها

وعلي حافة الباب الخارجي

ساقية من العشب الصغير الأخضر

تستحمُّ في الضوء))

(الماغوط، ٢٠٠٦،ص ٦٤، ٦٥)

مضت الأحلام، فاستيقظ الحالم ليجد نفسه صقرا مطاردا، ولا شيء ذا قيمة يمكن أن يتحدث عنه، فالأهداب قاتمة وهي رمز المستقبل المأساوي، لذا جاءت الابتسامات متألمة، إنها رؤيا تستشرف الفناء على المستوي الجمعي، مستوي الذوات المنتمية إلس المكان نفسه والمعتنقة الروح نفسها.

ونلحظ هنا كيف تحضر ((ليلي))، وهي الحبيبة التي تحضر في ذروة اللحظات التي تتأزم فيها الذات، فحين يزداد القبح وتتراكم الخيبات وتطفح الذات بأزماتها، تظهر هذه الحبيبة، والتي جاءت هنا رمزا للحياة في هذا الموت الهائل المحيق بالذات الجمعية. ففناء الذوات بات وشيكا.

ويبدو أن الذوات تتوهم شروق الشمس، فعدم إشراقها دليل توقف الزمن والسبات، فالجميع يظنُّ أنَّ الزمن يمضي، لكنهم يخيبون في نهاية الأمر. أما خارج وجودهم المكاني، فالزمن في سيرورته الطبيعية، حيث الضوء يسيطر على المشهد. فيتذكر الشاعر الراحلين من أهله و أحبته و قد طواهم الموت فيقول:

((ياعتبتي السمراء المشوهة

لقد ماتوا جميعا أهلي وأحبابي

ماتوا على مداخل القري

وأصابعهم مغروسة كاشوك في الريح))

(الماغوط، ص٢٠٠٦، ص١٣٣)

يخاطب الماغوط هنا عتبة هي مدخله إلى حياته الجديدة، حياة الموت فبعد أن اجتاز العتبة اقتحم الموت محيطه ليصل إلى فناء اجتماعي كامل. وقد أكد حالة الموت بذكره اللفظة ((ماتوا)) مرتين، وكما يري مولينيه ((أنّ ما يؤكد عمل المفردة في بناء أسلوب نص ما هوتكرار هذه المفردة)) (بسام، ١٩٩٩م، ص١٣).

فالجميع موتى، إنّه مشهد مغرقّ في قتامة، يصوّر حالة الفناء الجماعي التي وصل إليها المجتمع، فتوسّعت رؤيا الموت للتتجاوز الذات الفردية وتصل المجتمع كلّه.

فيتنمي أن تنطفيء حياته هو أيضاً فيقول:

((دعوني أنطفي كشمعة أمام الريح

أتألم كالماء حول السفينة

فالألم يبسط جناحه الخائن

والموت المعلق في خاصرة الجواد

يلج صدري كنظرة الفتاة المراهقة

كأنين الهواء القارس))

(الماغوط، ٢٠٠٦، ص٣٧،٣٨)

يبدأ هنا الموت بحضوره المادي، فلا تكتفي الذات بالموت على مستوي الفاعلية، بل تنتقل إلى الموت المادي الذي ينبيء بالفناء في المكان والزمان. إنّه اللا وجود بكل تجلياته، فالشاعر في هذا المقطع يستحضر لحظات ما قبل الفناء ((الألم وترقّب الموت)) فيتصور سقوطه في الشارع أو حال موته و هو وحيداً فريداً لم يك في جنبه أحد:

((يخيل لي أنني أتهاوي على الأرصفة

سأموت عند المنعطف ذات ليلة

وأصابعي تتلوي على الحجارة كديدان التفاح

دون أن ينظر إلى أحد

إنني أري نهايتي))

(الماغوط، ٢٠٠٦، ص١٢٦)

فالموت مسيطر على خيالات الشاعر واستشرافات الذات، فهو متأكد من هذا المصير الحتمي وهو الفناء. وكأنّه حاضرٌ أمامه. فهو متأكد من هذا المصير الحتمي وهو الفناء. وكأنّه حاضرٌ أمامه. فهو يستشرف هذا المصير استنادا إلى واقع لا يوصل إلا إلى الموت، ولا يحيل إلا إليه. فيبين مصيره الحتمي باحثا عن الأشياء التي فقدها فيقول:

((إنني أتقدم في ضجة الميناء

أبحث عن محرمة زرقاء وامرأة مهجورة

أرسل نحيبي الصامت

نحو الشارع القديم، والحديقة المكتشابكة

يدي تلوّح للنهدين المتألقين تحت الاشجار

للأشعار الميتة في فمي))

(الماغوط، ٢٠٠٦،ص ٥٤، ٥٥)

وسيبكي عن هذه الحالة المأساوية حيث يري نفسه تاركة ما يملك:

((سأبكي بحرارة

يا بيتي الجميل البارد

سأرنو إلى السقف والبحيرة والسرير

وأتلمس الخزانة والمرآة

والثياب الباردة

سأرتجف وحيدا عند الغروب والموت يحملني في عيونه الصافية

ويقذفني كاللفافة فوق البحر))

(الماغوط، ٢٠٠٦،ص ٥٤، ٥٥)

يصل بنا الشاعر إلى المشهد الأخير، مشهد الوداع، وداع المحيط بكائناته العزيزة على الذات، إنه مشهد حزين، يختصر ألم الذات وحزنها الذي استوي على وجه حياتها. وبعكس ألم فراق الحياة، وإن كانت حياة لا تستحق العيش، لكنه يبقى موتا وانتهاء. إنه الفناء، فناء الذات وتلاشيها. لذا تمحور المشهد حول ((الوحدة والألم والحزن والحتمية الأزلية وهي الموت)).

الموت الضمني:

أ: رؤيا النهوض المشوّه:

تتكاثر مكتبلات الذات في عصر لا يعرف الرحمة، وتتوالي الأزمات والمتاعب لتبلغ الذات الهلاك حتى دون أن تبدي أي فعل يقودها إلى الهلاك. ففي لحظة يستحيل معها الخلاص لواقع بات واقع قهر يملأ الذات بالقلق على. مصير النوع الإنساني، وينجرف بها إلى استشراف الموت. في هذه اللحظة تحاول الذات النجاة والخروج من المستنقع الوجودي الذي غرقت فيه. فترفض في لحظات تزورها القوة البقاء في حال الدمار، ((فالقلق الوجودي الذي يغزو قصائد الشعراء يقابله حلم الأبد الذي يأبي على القصيدة أن تستشعر سنّ اليأس، أو أن تستسلم للنهاية)) (شبانة، ناصر، ٢٠٠٩، ص٦١).

إنها حتمية التاريخ الإنساني. وإنّ أي نهوض سيكون رداً على فعل. والرؤيا النهوض عند الماغوط كانت مشوهة ناتجة عن واقع مشوه أساساً، فالتشوه أفرز تشوها مضاداً. إنها لا ترتكز إلى أساس منطقي ولا تساير منطق النهوض في عمومه. إنه نهوض من نوع خاص، ((نهوضٌ مشوّه)). يقول:

((بالظلم والنعاس يتلاشى كل أثر

بالأنفاس الكريهة

والأجساد المنطوية كالحلزونات

بقوي الأوباش النائمة بين المراحيض

سنبني جنينة للأطفال

وبيوتا نظيفة، للمتسكعين وماسحي الأحذية))

(الماغوط، ٢٠٠٦، ص٦٦)

لنستعرض عناصر هذا النهوض، ((الظلم النعاس، الأنفاس الكريهة، الأجساد المنطوية، قوي الأوباش)). هل هذه حقا عناصر ضامنة للنهوض، ومؤسسة له..؟

هذه البني القذرة الكريهة لن تبني حدائق للأطفال أوبيوتا نظيفة للعوام. إنه اتجاه إلى النهوض، لكنه نهوض سلبي، تشوهت فيه آليته. يقول:

((لقد آن الآوان

لتمزيق شيء ما

للإبحار عنوة تحت مطر حزين...

لا كمغامر

تلفه سيول من الحقائب والأزهار

بل كفأر خسيس

كفأار دامع العينين

يستيقظ مذعورا

كلما ناحت إحدي البواخر

وتألقت مصابيحها

كعيون الضباع المبللة))

(الماغوط، ٢٠٠٦، ص٩٢)

يبدأ الماغوط مقطعه بإعلان لحتمية خلع الواقع، وارتداء واقع جديد. وهذا عنوان النهوض، إنه نهوض حقيقي، فهو سيبتعد عن اليابسة الرامزة إلى القبح بتجلياته كافة. وهو

مرغمٌ للقيام بفعل كهذا، لكنَّ فعل النهوض هذا لا يلبث أن ينكسر عندما قلب الشاعر سير الرؤيا فهو لن ينهض كمغامر ثائر حقيقي، بل كفأر خسيس، وأي نهوض للفأر الخسيس؟ فالفأر رمز الضآلة والدونية، والخسة رمز القبح والذل، ما منح رؤيا النهوض دلالتها المشوهة. فيقول في ذلك:

((ولدت عاريا، وشببت عارياً

كالرمح

كالإنسان البدائي

سأنزع جلود الآخرين وأرتديها

سأنزع جلود السحب والأزهار والعصافير

وأرتديها

محتميا بالضباب والأنين

بالأعلام الممزقة، والأثداء الملفوفة بالجوارب))

(الماغوط، ٢٠٠٦، ص١٥٢، ١٥١)

هنا يأتي الواقع المرُّ، الفقر واللاانتماء، والذات هنا ستثور على واقعها الذي رمز إليه بالعري. هذه هي الانطلاقة، لكن سيرها لن يكتمل، فهي خارجة من عري إلى آخر. فالذات سترتدي جلود الآخرين، فهي تطمح إلى عريهم، وليس إلى كسوتهم. كما أنها طامحة إلى ارتداء جلود الجمال، وليس الغوص فيه والانتماء إليه. فالبون شاسع بين الشكل والمضمون، إنه النهوض المشوه الذي لا يؤدي في نهايته إلا إلى الحال التي انطلق منها:

((لكنني سأعود ذات ليلة

ومن غلاصمي

يفور دم النرجس والياسمين

لأنعق كالغراب بين نهديك الرماديين

بين نهديك المقطوعين خارج الوطن

وأرسل نظراتي عبر الغرفة

وعبر جسدك المغطّي بالحساء والشاي

سأدوس بقدمي رنينك المتواصل

وأثداءاك المبعثرة على القمة))

(الماغوط، ٢٠٠٦، ص١٣٣ ،١٣٤)

هنا تأتي رؤيا النهوض بمضمون انبعاث، لكنه ليس على طريقة الفينيق، إنه انبعاث مشوّه. وسنستعرض البني التي ترسم ملامح ما بعد الانبعاث: ((دم النرجس والياسمين، لأنعق كالغراب، نهديك المقطوعين، خارج الوطن، سأدوس، أثداءك المبعثرة)).

هذه البني سلبية الدلالة، ففي الوقت الذي يؤكد فيه الشاعر حتمية انبعاثه، يعود ليشوه ذاك الانبعاث، ويعلن موت المنبعث. فهو الموت المقنع بالولادة، أو هو ولادة مشوهة. فلا نهوض حقيقيا يحيا بعد هذا الانبعاث، بل حال مأساوية ستخيم على الذات في واقعها.

ب: رؤيا الصمود البائس

إن النفس الإنسانية تأتي الخضوع للفناء، فإن لم تقهره، فهي تحاول جاهدي ألا تستسلم له. فحين يصبح التوق إلى الخلاص مزية تسم النوع الإنساني تتبح الذات لهذا النوع إمكاني الصمود في الوقت الذي تنعدم فيه الحيلة. يقول:

((هل ترحل؟

ولماذا؟

هل لأعود في أواخر العمر

على عكازين وسخين

واتمرغ على أول رصيف

يلوح لي من الواطن

أم لأعود لابسا قبعه من القش

متأبطا ذراع امرأة

ضاجعها رجال بعدد النجوم

لا سأظل متكئا على ريشتي حتى الشيخوخة

متكئا على مرفقي

حتى يسيل اللحم على الخشب))

(الماغوط، ٢٠٠٦، ص٩٧)

فالشاعر هنا يعرف مآله، فإن رحل سيعود آخر عمره ليدلل على حبّه لوطنه بتقبيل أرضه حاملا معه انتماءه الجديد الغريب، وهوما ترمز إليه قبعة القش. ورابحا امرأة ديدنها العهر، فقد ضاجعها الكثيرون.

لكنّه يدعم مقطعه ب ((لا)) هذه البتارة التي تقطع تواصل استرساله الحلمي والأفكاري. وهي دلالة وعي للمآل تحصل في عمليات الذات اللاواعية، فهي الصرخة الموقظة العقل.

ثم تشرق الشمس، لكنها شمس ظلمة. فالذات ستصمد حتى إن استمرت الحال السلبية. والصمود بائس بحقيقته ونتيجته ولا طائل منه.

يقول:

((كل ما تراه وتسمعه وتلمسه وتتنشقه وتتذوقه

وما تذكره وتنتظره وينتظرك

يدعوك للرحيل والفرار ولوبثيابك الداخلية))

(الماغوط، ٢٠٠٧م، ص٣٢)

((ومع ذلك لن أرحل

ولن أبرح مكاني قيد أنملة

كما يحلم يهود الداخل والخارج

وسأتشبث بالأسلاك الشائكة والحدود المكهربة

ولو تفحمت عليها))

(الماغوط، ٢٠٠٧م، ص٣٥)

في هذا المقطع تغرق الذات في واقع غارق في تجليات الفناء، فهو لا يطاق. لكنَّ الذات رافضة الرحيل أوالاستسلام للمهلكات. إنها ستتحدّى هذا الدمار والموت المحيق، حتى لوأدي ذلك إلى زوالها. فالواقع، والصمود ضد هذا الواقع، أعطيا نتيجة واحدة هي الموت. فيقول عن ذاته التي لا تقبل الاستسلام أمام الموت فيعلن عم مقاومته و صموده و بقاء ذاته:

((ومهما كانت الحفر عميقة

والظلام دامسا

والضباب كثيفا

سأري ما أريد رؤيته

وأصل إلى ما أريد الوصول إليه

فمنذ عصر الانحطاط

وأنا أترنّح مبسوط الذراعين

ولم أسقط حتى الآن))

(الماغوط، ٢٠٠٧م، ص٢٠٨)

هنا يبرز صوت الذات المتحدية بنبرة أعلي، ويكاد يصل إلى التحدي الحقيقي الذي يشكل نواة للمجابهة، وبالتالي إمكانية للانتصار. وفي هذا المقطع الذي قل نظيره في شعر الماغوط، نجد إدراكا واعيا لحقيقة الذات التي لا تستلم. ومن جهة أخري تتحدي صامدة معلنة أنها لم تمت وليست قابلة الموت. فهي ستصل في النهاية إلى ما تريد الوصول

إليه،ستصل الخلاص المنشود،حلم الذات الأبدي. فنري الشاعر ينوه و يرمز إلى انتصاره على الموت بأنه قد ترك أشياء تتداولها الناس و هي كتاباته و هذا يدل على بقاء ذاته و اتحاده مع أبناء جلدته و مواطنيه:

((لقد صارت قدماي جزءاً من الأرض

وشرفتي جزءاً من السماء

وكل ما كتبت صار في ذاكرة الناس

وهكذا انتصرت على الموت))

(الماغوط، ٢٠٠٧م، ص٣٦٧)

ها قد التقت الذات بضآلتها السحرية، إنها الوصفة المضادة للموت. فالموت لا يقهره سوي الحب (الموسي، ٢٠٠٦م، ص١١٤).

قد عرفت الذات سر الخلود، إنه الحب الذي يفجر الحدود الضيقة للذات، ويمنحها اتساعا لا رادع له، وبالتالي يصعب على الواقع المأزوم احتواء هذه الذات.

إنَّ أعلي درجات الحب هي لحظة الاتحاد. والماغوط هنا اتحد بالكل للتغلب على الجزء. اتحد بالواطن بإعتباره محورا، وبالسماء بانتمائها إلى الطبيعة التي لا يطولها القهر والفناء. وقد منحه الحب هذه القوة. فصموده مستمد من العناصر التي اتحد بها ليصبح في موازاي هذه العناصر وكأنّه امتلك خصائصها.

نتائج التحديث

عالجنا في هذا البحث رؤية الشاعر محمد الماغوط حول الموت و انحلال الذات و قد قصد الشاعر منها انعدام المجتمع والحركات الشعبية وتدهور الأوضاع وضياع التراث وفقدان الحيوية لدى المواطنين. وقد رمز الشاعر لبيان أفكاره بعدة رموز منها مجازية ومنها طبيعية ومادية. فالموت لدي الشاعر هو القضاء على جميع حركات المجتمع وفقدان الذات والهوية وفقدان الحرية والمواقف الحساسة. ولكن الشاعر بما أنه كان يخاطب المجتمع بلغته الشعرية الحماسية والتوعوية حاول المقاومة والصمود أما انحلال الذات و بقي في ذاكرة المجتمع فذاته ما كانت تقبل الاستسلام والركون للموت.

قائمة المصادر والمراجع

١. خنسة، وفيق، دراسات في الشعر السوري الحديث، دار الحقائق، الجزائر، ط٢، ١٩٨٢م.

٢. شبانة، ناصر، الرؤي المكبلة، أمانة عمان الكبرى، دار فضاءات، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٩م.

٣. القيم، على، محمد الماغوط، العاشق المتمرد، دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٦م.

٤. الماغوط، محمد، الاعمال الشعرية، دمشق: دار المدى، ط٢، ٢٠٠٦م.

٥. الماغوط، محمد، شرق عدن غرب الله، دمشق: دار المدى، ط٢، ٢٠٠٧م .

٦. مختار، ملاس، دلالات الاشياء في الشعر العربي الحديث دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠٠٢م.

٧. مقدسي، أنطون، الحب في الفلسفة اليونانية، دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٥م.

٨. مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٩٦م.

٩. الملائكة، نازك، قضايا الشعر المعاصر، مكتبة النهضة، بيروت، ط٣، ١٩٦٧م.

١٠. الموسي، خليل، قراءات في الشعر العربي الحديث والمعاصر، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠م.

١١. مولينيه، جورج، تر: بسام بركة، الأسلوبية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٩م.